على هامش حوادث دمشق

أطفال دمشق

بقلم الأستاذ «ع»

لمن هذه الرشاشات منصوبة فى الميادين والطرقات ؟ لمن هذه المصفحات وهذه الدبابات ، تروح وتغدو فى الشوارع والساحات ؟ لم تحوّم فى الجو هذه الطيارات ؟

لماذا يساق هؤلاء الجنود من كل جنس وكل لون ، فمن الشقر الفرنسيين الذين علموا أمم الأرض كيف تكون الثورة على الظالمين ، وكيف تنتزع الحرية من بين أنياب الأقوياء المستبدين ؛ إلى السمر المغاربة المسلمين ، الذين جاءوا راغبين أو راهبين ، ليحاربوا اخوانهم المسلمين ؛ إلى السود السينغاليين ، من كل أشمط تدنى الموت طامته ينساب فى لهوات الليل تعبانا زعانف وعباديد برابرة لا يعرفون لهذا الكون ديانا

إلى الصفر الهنديين الصينيين ؛ إلى هؤلاء (المتطوعة) أنصار الباطل ، جزاة الخير بالشر ، الذين أكلوا خبزنا وحاربونا ! ! أكل ذلك لأن هذا الشعب الأعزل تحرك ؟ أكل ذلك لأن دمشق غضبت ؟

تيهى إذن يا دمشق واعتزى ، فما أنت بالضعيفة ولا بالمهينة ، وقد حشدوا لك مالا يحشدون أكثر منه لقوم هتلر ، وشيمة ستالين !

* * *

كانت دمشق يوم الجمعة صابرة تتجرع حزنها على (ابراهيم) فى صمت رهيب ، وسكوت هائل ، فلم تحرك ساكناً ، وما دمشق بالتى تعرف أنة المكلوم ، أو استغاثة العاجز ، ولكنها تعرف الصبر الذى لا يصبر عليه الدهر ، أو الصرخة التى تصدع الصخر ، وتخرج الميت من القبر ؛ وما دمشق بالتى تعرف هذا الاحتجاج الضعيف ، احتجاج « أوسعته شتما وأودى بالابل » ... ولكنها تتلقى الضربات بصدر كأنه الجلمود لا يشقق ولا يرفض ولا يلين

وباتت دمشق على هذا الصمت ، فلم يمض هزيع من الليل حتى سمعت الصريخ ، فأفاقت فزعة ، تسأل :

— ما الخبر ؟

— قيل : اختطفوا (نخرى البارودى)

ابن دمشق يختطف من حضن أمه وهى نائمة ؟ . . . يا الأكبر ! يا لهيبة دمشق ! يا لغضبة البطل القشمشم !

* * *

أقبل أبناء دمشق بأيديهم ، وأقبلت هذه الجيوش بحد نارها ، وكانت المعارك ... التى يصطرع فيها الحق والقوة والدم والنار ، والصدور والحديد ، فبينما معركة من هذه المعارك على أشد ما تكون عليه وإذا ...

وإذا ماذا ؟ ليس على وجه الأرض من يستطيع أن يقول ماذا كان ، إلا هؤلاء الشاميون ، وهؤلاء الفرنسيون الذين أكبروا جميعاً هذه البطولة التى لم يرو مثلها التاريخ . . .

وإذا خمسون من الأطفال الذين لا تتجاوز سن أكبرهم التاسعة ، ينبعون من بين الناس ، يخرجون من بين الأرجل منهم التلميذ ذو الصدرية السوداء والأزرار اللامعة ، قد فرّ مدرسته وقطره لا يزال معلقا فى عنقه ، وحمل مسطرته بيده ومنهم صبيّ اللحام ، وأجير الخباز ، قد اتحدوا جميعاً ، وأخذوا يهجمون بالمساطر على الدبابة وهى تطلق النار ، وهم يطلقون حناجرهم الرقيقة بأصواتهم الناعمة ، التى تشبه الآلة السحرية التى غنّى عليها الفارابى ، فأضحك وأبكى . . . هذه الأنشودة البلدية المعروفة :

وصغارنا تحمل خناجر وكبارنا عالحرب واصل

يا بالوطن يا بالكفن

فوقف الناس ينظرون اليهم ، وقد عراهم ذهول عجيب فارتخت أيديهم بالحجارة التى كانوا يقاومون بها الرصاص . حتى رأوا الأطفال قد تسلقوا الدبابة وركبوها فاشتعل الشيب فى مفارقهم ، وفى أحداق رؤوسهم ، فأنشدوا أنشودة الموت :

« يا سباع البر حوى ... ... »

وهم يرعدون بها . فتهتز من جهجهتها الغوطة ، ويرتجف قاسيون . وأقبلوا كالسيل الدفاع ...

ولكنهم رأوا الدبابة قد كفت عن الضرب ، ثم انفتح برجها ، وخرج منها شاب فرنسى يبسم للأطفال ، وإن فى عينه

لأثر الدمع من التأثر ، ويداعبهم ، ويقدم لهم كفاً من الشكولاته ، ثم يعود إلى مخبئه !

إنسانية قد توجد حتى فى الدبابات !

* * *

ورأيت فى هؤلاء الصبية تلميذاً فى شعبة الأطفال من مدرستنا ، وكان صغيراً جداً ما أظنه قد أكمل عامه السابع ، فدعوته فأقبل حتى أخذ بيدى ، وجعل يرفع رأسه إلى يحاول أن يتثبت من وجهى ، فقلت :

— لماذا عملتم هذا العمل يا بابا ؟

— فقال : أخذوا تخفى الباغودى (يريد تخرى البارودى)

— قلت : ومن قال لك ذلك ؟

— قال : أى . وقالت لى هلّى يموت بالفصاص يفوح عالجنة (يريد : من يموت بالرصاص يذهب إلى الجنة)

— قلت : وإذا أرجعوا تخرى البارودى ، هل ترضى ؟

— قال : لأ . خلى يفوحوا (يروحوا) هدول كان ما بدناياهم ! (يريد فليذهب هؤلاء أيضاً ، لا نريدهم)

فسكتّ . فقال :

— أستاذ ، ليش الاسلام مالهم عسكنع (عسكر) ؟

فأصابتنى كلمته فى القلب ، ووجدت كأن شيئاً جاشت به نفسى ، ثم صعد إلى رأسى ، ثم وجدته فى قصبة أنفى ، وآماق عينى ، ودق قلبى دقاً شديداً ، فتجلدت ومسحت عينى ، وحككت أنفى ، وقلت له :

— أنتم يا بابا عسكر الاسلام .

— قال : نحن صغار !

— قلت : ستكبرون يا بابا ، انتم أحسن منا ، نحن لما كنا صغاراً كنا نخاف من البعبع ، ونخشى القط الأسود ، وأنتم تهجمون على الدبابة ، فالمستقبل لكم لا (لهم) ... !

* * *

وبعد ، فلمن هذه الرشاشات ؟ ولمن هذه المصفحات وهذه الدبابات ؟ ولمن هذه الجنود وهذه الطيارات ؟ إنها لم تصنع شيئاً ، ففتشوا عن شىء أكبر من الموت ، لتفزعوا ... (أطفال دمشق) ! ...

« ع »

علم غير مفيـــد

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

فى النشرة الأخيرة للجامعة الأمريكية فى بيروت مقال افتتاحى عنوانه « علم الفلك — علم غير مفيـــد » وقد أوحت إلىّ قراءته أن أكتب هذه العجالة فى الفوائد التى جناها الانسان من علم الفلك . ويلاحظ أن المتعلمين وطلاب المدارس العالية والكليات والجامعات يختلفون فى نظرهم الى هذا الفرع من المعرفة اختلافاً بيّنا ، فمنهم من يقول بوجوب تدريسه والاعتناء به ، إذ فيه فوائد ومنافع عادت على البشرية بأطيب الثمار ، ولولاه لما شعر الانسان باللذة الروحية شعوره الحالى ، ولبقى نظرنا إلى الكون فى نطاق محدود ، وفى محيط ضيق ؛ وفريق آخر يقول بعدم فائدة علم الفلك ، وبأن فى تدريسه إضاعة للوقت فيما ليس فيه غناء ، وأن الأولى لنا أن نهتم بشىء يعود على المدنية بالمتاع والنفع . ولا يقف هذا الفريق عند هذا الحد ، بل يتعداه إلى الجهر بأن الاعتناء بعلم الفلك وإنفاق الأموال الطائلة على مراصده وآلاته ضرب من الهوس والسخف ؛ ويتساءل هذا الفريق قائلا : ماذا يستفيد الانسان من معرفته أن الأرض كوكب من كواكب أخرى تدور حول الشمس ، وأن لهذا الكوكب تابعاً — القمر — يدور حولها ؟ وهل يزيد فى سعادة البشر ورفاهيتهم إذا عرفوا أن لبعض الكواكب توابع كما للأرض ؟ وهل فى القول بأن فى السماء نجوما لا عديد لها بعضها أكبر من الشمس وبعضها أصغر ، وأن هناك أنظمة أخرى وسدماً ومجرات وعوالم ، هل فى كل ذلك ما يعود علينا بالتقدم ؟ هذه بعض أسئلة الفريق الذى لا يؤمن بأهمية علم الفلك ومنافعه . ويسرنى ألا أكون من هذا الفريق وأننى أخالفه وأن أكون من الفريق الأول القائل بسمو علم الفلك وبأثره الفعال فى تطور نظر الانسان الى الكون وما يحويه من أعاجيب

وفى رأيى أن علم الفلك من العلوم الواجب تدريس مبادئها لطلاب المدارس العالية والكليات والجامعات وجعله اجباريا ، حتى يخرج الطالب وقد جمع الى العلوم العملية والفنون النافعة علماً ومعلومات عامة هى أسمى أنواع المعلومات ، توسع أفق التفكير